دور علماء دولة الجهاد السكتية في الترويج لفكرة المهدية في سودان وادي النيل

إعداد :

د. محمد مصطفى محمد صالح – أ.مشارك بكلية الآداب – جامعة الخرطوم

د. نبيل رابح آدم سعيد – أ.مساعد بقسم الجغرافيا والتاريخ – كلية التربية – جامعة كسلا

مستخلص الدراسة

يهدف هذ البحث إلى الوقوف على فكرة المهدي والمهدية ومدى انتشار هذه الفكرة ومعرفتها لدى مجتمع إفريقيا عموماً، وذلك من خلال إبراز الدور الذي أدَّاه قادة الخلافة السكتية وعلماؤها وخلفاؤها في الترويج لهذه الفكرة، وقد اتبع البحث المنهج التحليلي التاريخي الوصفي للحقائق التاريخية.

توصل إلى عدة نتائج أبرزها أن معالم ظهور المهدي المنتظر كانت أكثر وضوحاً لدى مجتمع الخلافة السكتية وأنهم روّجوا لذلك بكل ما أُوتوا من وسائل، وفي ذلك دفعٌ للناس للبحث عنها وتحريها، وفي نفس الوقت هي اعترافات صريحة بأنها ليست لهم، الأمر الذي فتح الباب أمام الجميع في سودان وادي النيل أن يتحروها بدقة.

غير أن البحث يوصي بضرورة الوقوف على مزيد من البحوث على طبيعة الثورة المهدية وبواعث قيامها خاصة مع الوضع في الاعتبار التأييد الذي حظيت به داخل قارة إفريقيا وخارجها، مع مقارنة ذلك بعمرها القصير وزوالها السريع.

Abstract

This research aims to identify the idea of the Mahdi and the Mahdi and the extent of the spread of this idea and knowledge of the society of Africa in general, by highlighting the role played by the leaders of the Caliphate and its scientists and successors in promoting this idea.

The research has followed the descriptive historical analytical method of historical facts, Most notably that the features of the emergence of the Mahdi awaited was more evident in the community of the Caliphate, and they promoted all the means they have, and in this push people to search for and investigate. At the same time, they are frank acknowledgments that they are not theirs, which has opened the door for everyone in the Nile Valley to study them thoroughly.

But the research recommends the need to stand up to further research on the nature of the Mahdia revolution and the motives for its establishment, especially taking into account the support it received within the continent Africa and beyond, compared with its short age and rapid demise.

مقدمة :

المهدية هي حركة دينية قامت ضد الحكم التركي المصري في السودان، وقد ساعدت الظروف السياسية والإقتصادية وما آلت اليه الإدارة، إلى انتشار الحركة وانضمام كثيرين من المتبرمين من الأوضاع السياسية السائدة يومئذ إليها، كما أن استخفاف الحكومة في بداية الأمر بشخصية محمد أحمد بن عبد الله المهدي قائد الحركة والذي ولد في جزيرة لبب بالقرب من دنقلا العرضي حوالي سنة 1843م [7] وتخبط الحكومة في سياستها تجاه الحركة والظروف التي كانت تمر بها، ساعدت كلها على أن تتطور الحركة وتنجح في تثبيت أقدامها في السودان، وتصديها للقوات النظامية وهزيمتها لها [5]، بحيث استطاعت أن تتحول في فترة وجيزة من مجرد حركة إلى دولة ثابتة البنيان. ولقد امتلكت الدولة المهدية العديد من مقومات النجاح والاستمرار والتي يمكن ذكرها بدءاً من الخلفية العقائدية حول فكرة ظهور المهدي المنتظر مروراً بشخصية قائدها الإمام محمد أحمد بن عبدالله والذي كان يمتاز بقدر وافر من العلم حيث كان قد حفظ القرآن ودرس الفقه والنحو والتصوف ثم أخذ الطريقة السمانية، وانتهاءاً بالوضع الذي كان عليه الحكم التركي المصري وحالة الضعف العسكري الذي كان عليها قبيل الثورة، كل هذه الظروف تضافرت مع توجيه الفوديون للمهدية إلى هذه البؤرة من إفريقيا بالتحديد لتقوم دولة المهدية.

أهمية الدراسة :

تأتي أهمية هذه الدراسة من واقع أنها تتناول واحدة من أهم الموضوعات التي شغلت بال المفكرين والباحثين في العصر الحديث من تاريخ السودان وهي فكرة المهدي والمهدية، وما انتهت اليها هذه الفكرة في بلاد السودان من تأسيس دولة تمكنت من القضاء على الحكم التركي المصري في السودان.

أهداف الدراسة :

تهدف هذه الدراسة إلى:

1- التعريف بالمهدي وفكرة المهدية.

2- الوقوف على مدى انتشار فكرة المهدية في بلاد السودان (الإقليم).

3- التعريف بدولة الخلافة السكتية وبيان دورها في الترويج لفكرة المهدية وتوجيهها.

منهج الدراسة :

اتبعت هذه الدراسة المنهج التاريخي الوصفي التحليلي للحقائق التاريخية.. وهو يقوم على تحليل العناصر والأسباب التي أدت إلى وقوع المشكلة أو الهدف في الماضي، بهدف معرفة مدى تأثيرها وهل لها جانب إيجابي أو سلبي عن تطبيق نفس هذه العناصر على مشكلة أخرى، بالإضافة إلى عرضها في الحاضر والتطوير أو التغير في المستقبل.

هيكل الدراسة :

تم تقسيم هذه الدراسة إلى ثلاثة مباحث : تناول المبحث الأول اسم المهدي وفكرة المهدية، وتناول المبحث الثاني دولة الجهاد السكتية، أما المبحث الثالث فقد تناول علماء سكوتو والترويج لفكرة المهدية، ثم جاءت الخاتمة وبعدها النتائج والتوصيات وأخيراً قائمة المصادر والمراجع.

تمهيد :

كان العالم الإسلامي خلال تلك الفترة قد بلغ حداً بعيداً من التفكك والانحدار نتيجة لانتشار الفساد وانحطاط الأخلاق، وبدأ الناس يرقبون ظهور المهدي في كثير من البلاد الإسلامية، وكان الحديث عن المهدي يكثر في نهاية كل قرن، عندما يشتد الظلم على المسلمين ويشعرون بابتعادهم عن دينهم ورغبتهم في تجديده، لذلك كانت نهاية القرن الثامن عشر فترة ترقب وانتظار لظهور المهدي، فأصبح المسلمون في بلاد السودان الغربي يرقبون الإسلام في شخص المهدي المنتظر في نهاية ذلك القرن ليبدل حالهم، ويطهرهم وينشر العدل بينهم، وفي ذلك الوقت كان الشيخ عثمان بن فودي قد بدأ جهاده الإصلاحي واستطاع به أن يقيم أكبر دولة إسلامية عرفها التاريخ في غرب إفريقيا، بل كانت أهم الحكومات الإسلامية التي قامت في بلاد السودان الغربي، واستمرت مائة عام (1804 – 1903م)، والحق أن القرن التاسع عشر كان فترة ازدهار كبير للقوى الإسلامية التي انتظمت ذلك الإقليم من المحيط الأطلسي غرباً إلى بحيرة تشاد شرقاً [19].

وإذا كان قد قُدَر للمهدية أن تنشأ باعتبارها دولة في السودان في المنطقة التي كانت تعرف اصطلاحاً بـ (سودان وادي النيل)، فإن حركة الجهاد الفودية والتي تمخضت عنها قيام ما عرف اصطلاحاً في التاريخ بـ (الخلافة السكتية) والتي نشأت في بلاد الهوسا في منطقة شمال نيجيريا الحالية قد أسهمت بشكل وافر وفعَّال في التأكيد على فكرة المهدية والترويج لقيامها في منطقة السودان، وذلك بواسطة علماؤها وحكامها الذين تعاقبوا عليها.

أ/ اسم المهدي وفكرة المهدية :

يشتق اسم المهدي من فعل هدى، أي بيّن طريق الهدى وعرّفه وأرشد إليه، ومنه اشتق اسم الهادي الذي هو من أسماء الله الحسنى وخلافه ضل، أي تاه وأخطأ وزاغ عن الصراط المستقيم، ويدل المصدر هدى على الطاعة والورع وبذلك يدل اسم المفعول مهدي على الذي قد هداه الله إلى الحق وهو من الهداية. وسمي بذلك لأنه يهدي الناس هداية إرشاد إلى الحق [14]. وكلمة (المهدي) لم ترد في القرآن الكريم ولم ترد في الصحيحين ولكنها وردت في بعض كتب الحديث الأخرى كابن ماجة والترمذي وغيرها، وخلاصة ما ورد في كتب الحديث عن المهدي أنه شخص يظهر في آخر الزمان يجدد الدين ويملأ الدنيا عدلاً بعد أن ملئت جوراً، ويكون من نسل فاطمة بنت الرسول صلوات الله وسلامه عليه، ولذلك يعرف عند بعض العلماء بالفاطمي المنتظر، وهذا هو المعروف عند الكافة من أهل الملة الإسلامية عن المهدى المنتظر، وإن اختلفت مذاهبهم ونحلهم في تعيين صاحب اللقب وتحديد زمان ظهوره [16].

ترجع الجذور التاريخية لفكرة المهدى المنتظر إلى الفتنة الكبرى التي تلت مقتل الخليفة عثمان بن عفان رضى الله عنه، فقد كان من نتائج قتل الخليفة أن انقسمت الأمة إلى شيع وطوائف وبدأت الحرب الأهلية بين علي ومعاوية التي انتهت بقيام الدولة الأموية. ومن هنا نشأت فكرة المجدد الذى سيظهر في المستقبل ليعيد للأمة وحدتها ويقيم الملة على سنة الخلفاء الراشدين . وقد تطورت فكرة المجدد هذه عند الشيعة بعد هزائمهم المتكررة على أيدى الأمويين إلى فكرة المهدي المنتظر الذى ينتصر على الأمويين ويعيد الملك لأهل البيت . وكان أول من لقب بالمهدى من أهل البيت محمد بن علي بن أبي طالب المعروف بمحمد بن الحنفية وهو ليس من نسل فاطمة، فأمه من بنى حنيفة [16].

ب/ دولة الجهاد السكتية :

خلافة سوكوتو، أو امبراطورية سكوتو، وتسمى أيضاً إمبراطورية الفولاني وذلك نظراً لمؤسسها عثمان بن فودي الذي ينتمي إلى قبيلة الفولاني، **والذي ولد في يوم الأحد في أواخر صفر سنة 1168هـ، الموافق ديسمبر من عام 1754م، في قرية ماراتا في أرض غوبر إحدى ولايات الهوسا السبع، وكان أبوه عالماً من العلماء في المنطقة [24]**، نشأ في حجر والديه الصالحين وكان لهما الفضل في توجيهه إلى الدين والعلم والعبادة التي أولع بها منذ أن ناهز البلوغ، أخذ مبادئ العلم من والده ومن والدته حواء وجدته رقية، ويلاحظ هنا أن البيت الذي خرج منه الشيخ عثمان هو بيت علم لدرجة أن النساء يؤخذ عنهن العلم [20].

تأسست إمبراطورية سكوتو في القرن التاسع عشر الميلادي في بلاد الهوسا التي تقع في نيجيريا الشمالية، وكان للهوسا سبع إمارات وهي إمارة دورا، وإمارة كانو، وإمارة زازو أو زجزج، وإمارة جوبير، وإمارة كاتسينا، وإمارة بيرام، وإمارة رانو، حيث بدأ الشيخ عثمان بن فودي في نشر دعوته وأفكاره الداعية إلى محاربة الوثنية منذ عام 1774م، وفي عام 1786م بدأ في إرسال البعثات إلى حكام إمارات الهوسا شارحاً لهم أفكاره، غير أنهم لم يستجيبوا، بل حاربوه وسعوا إلى منع تقدم حركته بكافة الوسائل، الأمر الذي جعله وأنصاره يعمدون إلى التسلح لتكوين جيش قوي، حيث أمر أصحابه بالهجرة، وأعلن الجهاد، ونجح في عام 1804م في الحاق الهزيمة بجيش يونفا حاكم إمارة جوبير أكبر وأقوى إمارات الهوسا، ثم غزا باقي الإمارات فاستولى في عام 1808م على الكالاواة عاصمة جوبير، وتبعتها كانو في السقوط على يده في عام 1809م، وتحرك الشيخ عثمان نحو سكوتو، وبذلك نجح في الاستيلاء على المراكز المهمة في أراضي

الهوسا، ثم اتخذ من سكوتو عاصمة لدولته، ونجح في اجتذاب جميع طبقات المجتمع حتى النساء والعبيد [6].

قسم الشيخ عثمان بن فودي دولته إلى قسمين هما القسم الشرقي والذي ضم كلاً من زمفارة، وكاتسينا، وكانو، وبوشي، وسكوتو التي كانت المركز الرئيس لهذا القسم وأوكل أمر إدارته لابنه السلطان محمد بللو، والقسم الغربي وقد ضم كلاً من نوب ويندي، وبورجو، وإيلورين وكان المركز الرئيس لهذا القسم في جواندو تحت إدارة شقيق الشيخ عثمان بن فودي الشيخ عبدالله بن فودي، وقد استمر حكم إمبراطورية سكوتو لهذه المناطق مدة قرن من الزمان حتى قضى عليها الاستعمار البريطاني في عام 1903م [6].

ج/ علماء سكوتو والترويج لفكرة المهدية :

تمتاز إمبراطورية سكوتو بأن مؤسسها لم يكن فقط بطلاً ورجل سياسة بل كان عالماً ورجلاً من كبار المفكرين المسلمين وله مؤلفات واسعة فيها عمق وبحث ودراسة [6]، وكذلك الحال بالنسبة لخلفاء الشيخ عثمان، والمقصود هنا ابنه السلطان محمد بللو وشقيقه الشيخ عبدالله بن فودي فهم على قدر كبير من العلم والاطلاع بما جعل الباحثين يقولون إن علماء الدولة السكتية هم أنفسهم قادتها، ذلك أن الكتب والرسائل المرصودة للشيخ عثمان دانفوديو تبلغ (113) كتاباً، والمرصودة لأخيه الشيخ عبدالله تبلغ (58)، والمرصودة لابنه السلطان محمد بللو تبلغ (96)، بينما لابنته أسماء (ستة) عناوين شعراً ونثراً، ومثلت هذه المصادر معلماً مهماً في تاريخ الفكر الإسلامي وفقهه وسياسته وإدارته واقتصاده ودعوته وعلومه المختلفة، وهي بنفس القدر حركة ازدهار للثقافة العربية ولغتها وآدابها ونثرها وشعرها وحروفها وأرقامها وقيمتها الفنية والجمالية [22].

وفي إطار البحث عن قيمة هؤلاء العلماء في الترويج للمهدي والمهدية يمكن الوقوف دون تردد عند كل صغيرة وكبيرة كتبوها في هذه المسألة، ذلك لأن المهدية هي مسألة عقائدية في المقام الأول وهي تحتاج إلى السند العقائدي من قِبل علماء لهم قدم راسخة في الفقه والعقيدة لعل ذلك يعطيها قوتها ومصداقيتها، خاصة في ظل ما ذهب إليه الكثير من الباحثين والمؤرخين من محاولات للتشكيك بأحقية الدعوة المهدية لأن تكون ثورة دينية تحمل لواء الإسلام وتؤسس به دولة، ولعل من بين تلك الآراء ما ذهب إليه ابن خلدون في مقدمته حيث يقول :

(اعلم أن المشهور بين الكافة من أهل الإسلام على ممر الأعصار أنه لا بد في آخر الزمان من ظهور رجل من أهل البيت يؤيد الدين ويظهر العدل، ويتبعه المسلمون ويستولي على الممالك، ويسمى بالمهدي، ويكون خروج الدجال وما بعده من أشراط الساعة الثابتة في الصحيح على أثره، وأن عيسى ينزل من بعده فيقتل الدجال، أو ينزل معه فيساعده على قتله ويأتم بالمهدي في صلاته) [1]. ثم استعرض ابن خلدون ثمانية وعشرين حديثاً وردت في المهدي وناقش في بعض رجال أسانيدها، وختم مناقشاته بقوله : "فهذه جملة الأحاديث التي خرجها الأئمة في شأن المهدي وخروجه في آخر الزمان، وهي كما رأيت لم يخلص منها من النقد إلا القليل والأقل منه [14].

فكتابات دانفوديو وخلفاءه من بعده عن المهدية ليست باعتبارها فكرة أو معتقداً فحسب بل ذهب الباحثون إلى أبعد من ذلك حيث تحدثوا عن قيمتها السياسية الكبرى، وعن قدرتها على تأسيس دولة. وهنا تكمن الأهمية القصوى لتبشير قادة حركة الجهاد الفولاني بالمهدية، خاصة عند النظر إلى مكانة الشيخ عثمان دانفوديو العلمية، وذيوع صيته.

ذهب بعض الكتاب والمؤرخين إلى الحديث عن أثر حركة الجهاد التي فجَّرها الشيخ عثمان دانفوديو في بلاد الهوسا على دعوة محمد أحمد المهدي في سودان وادي النيل، فقد بشَّرت الحركة الفودية بقرب ظهور المهدي المنتظر وشجعت أتباعها على تأييده، وهناك جملة روايات شفهية منسوبة للشيخ عثمان بن فودي متعلقة بالمهدي والمهدية تأكد لدى بعض الباحثين أنه أسر بها لجماعته وبخاصة إلى أبنائه [15].

لقد برز الشيخ عثمان بحركته التجديدية في فترة تعد في غاية الأهمية بالنسبة للفكر المهدي، حيث تزامن ظهوره مع حلول الوقت الذي عُين في بعض الكتب لظهور المهدي، وهو تمام ثلاثين سنة في القرن الحادي عشر بعد المائة، مما دعا كثيراً من الناس في ذلك الوقت إلى الاعتقاد بأن الشيخ عثمان نفسه هو المهدي المنتظر، وتكمن خطورة هذا الاعتقاد في أنه يشكل تهديداً صريحاً لمشروع الشيخ عثمان الإصلاحي، ذلك لأنه كان يهدف إلى خلق مجتمع فاضل عن طريق العلم وتوسعة دار الإسلام، وليس إلى تهيئة الناس لقرب قيام الساعة، لذا كان لزاماً عليه إقناع الناس بعدم صحة ما ذهبوا إليه، وكان هذا أحد أسباب اهتمامه بمسألة المهدية في كتاباته [13].

والحقيقة أن الشيخ عثمان وأخوه عبدالله وابنه محمد بللو قد كتبوا بضعة مؤلفات حول هذا الموضوع [18]، يقول الشيخ محمد بللو في كتابه إنفاق الميسور نقلاً عن (أم هانئ) وهي ولية صالحة فلاتية عاصرت حركة الجهاد وقيام الخلافة السكتية أنها قالت : (يظهر في هذا القطر السوداني ولي من أولياء الله، يجدد الدين ويحيي السنة ويقيم الملة ويتبعه الموفقون ويشتهر في الآفاق ذكره ويقتدي العام والخاص بأمره ويشتهر المنتسبون إليه بالجماعة، ومن علامتهم أنهم لا يعتنون برعي البقر كالفولانيين، ومن أدرك ذلك الزمان فليتبعه) [2].

على أن هذا القول ترويجٌ صريحٌ لفكرة ظهور المهدي في بلاد السودان، غير أنها (أم هانئ) نفت أن يكون هذا المهدي هو الشيخ عثمان دانفوديو وذلك بقولها : (إنه من قوم لا يعتنون برعي البقر كالفولاني) ثم أنها أشارت لكل من أدرك ذلكم الزمان أن يتبعه مما يجعلنا نسلم بقيمة الحركة الفودية على شحذ همة أهل السودان في البحث عن المهدي المنتظر على غرار الصفات التي ذكرتها (أم هانئ الصالحة).

ومما يجدر ذكره في هذا المجال أن الشيخ نفسه ألف كتاباً بعنوان (تحذير الإخوان من ادعاء المهدية الموعودة في آخر الزمان)، وفيه ناقش كثرة الحديث عن المهدية في زمانه وإضفائها عليه ويخلص إلى أنه ليس بالمهدي المنتظر حيث قال : (اعلموا يا إخوان أن ادعاء المهدية مما ابتلي به الناس قديماً وحديثاً، واعلموا أيضاً أن خروج المهدي أمر مقطوع به، وأن كونه من ذرية فاطمة بنت محمد صلى الله عليه وسلم هو الصحيح الذي عليه الاعتماد في قصة تحري المهدي وانتظاره) [23]، كما كتب نافياً عن نفسه صفة المهدي قائلاً : (اعلموا أيضاً يا إخواني بأني لست بالإمام المهدي ولا ادعيت المهدية، وأتساءل كيف أدعيها وقد ولدتٌ في بلاد السودان في مكان يسمى "ماراتا" وقد عرف في الأحاديث أن المهدي يولد في المدينة؟) [4].

غير أن الأمر الذي يستدعي البحث هنا هو ما ذكره الشيخ عن كون المهدي من ذرية فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو ما يقودنا للحديث عن نسب المهدي. هو محمد بن عبدالله بن فحل بن عبد الولي بن عبدالله بن محمد بن حاج شريف بن على بن أحمد بن على بن حسب النبي بن صبر بن نصر بن عبد الكريم بن حسين بن عون الله بن نجم الدين بن عثمان بن موسى بن أحمد بن أبى العباس بن يونس بن عثمان بن يعقوب بن عبد القادر بن الحسن العسكري بن علوان بن عبد الباقي بن صخرة بن يعقوب بن سيدنا الحسن بن الإمام على

بن ابى طالب [17]. أما من جهة أمه فهو ابن زينب بنت نصر وتنتهي سلسلة نسبها إلى العباس بن عبد المطلب [8]. وفى المنشور الصادر في بداية دعوته المهدية في معرض الرد على يوسف الشلالي ومن معه من الجموع المؤرخ الرابع من رجب 1299هـ الموافق 22 مايو 1882م جاء فيه قول المهدى ... (وليكن معلومكم أنى من نسل رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأبي حسني من جهة أبيه وأمه، وأمي كذلك من جهة أمها، وأبوها عباسي، والعلم لله أن لي نسبة إلى الحسين رضى الله عنه) [17].

ولعل قصة نسب محمد أحمد بن عبدالله المهدي والتي تنتهي حقيقة إلى الحسن بن علي بن أبي طالب الذي أمه هي فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم تكشف صدق ما ذهب إليه الشيخ عثمان دانفوديو في ذكره حقيقة أن المهدي سيكون من نسل فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، الأمر الذي يجعلنا نبحث بجدية أكثر عن قيمة الدولة السكتية في الترويج لفكرة المهدية في سودان وادي النيل.

والحقيقة أن الشيخ عثمان بشّر بقرب ظهور المهدي في الشرق أي بالشرق من الخلافة السكتية، وكان يقصد سودان وادي النيل [10] حيث أشار إلى أن المهدي سيظهر من ناحية الشرق وأن جماعته سيهاجرون لمناصرته، وقد وردت هذه الإشارة في ثلاث وثائق [12] هي :

الوثيقة الأولى :

رسالة من ابنه محمد بللو إلى مودبو آدم أمير أدماوا يحثه فيها على تأمين الطريق المؤدي إلى الشرق كما يلي : (والأمر الذي ذهبت به عندنا هو إنفاذ الجيوش إلى جنوب وداي وجنوب دارفور وإلى ناحية بحر النيل، واجتهدوا في ذلك وأنفذوا العيون إلى تلك البلاد فإن شيخنا رضي الله عنه أشار لنا بأن جماعته تنتقل إلى تلك النواحي عند قرب ظهور المهدي هناك ويبايعونه إن شاء الله) [25].

الوثيقة الثانية :

كان الباعث لرسم هذه الرسالة هو أنه لما توفي السلطان محمد بللو عام 1837م، ومجيء عهد السلطان أبي بكر عتيق تكاثرت الإشاعات عن قرب ظهور المهدي المنتظر في الشرق، الأمر الذي اضطر الخليفة إلى كتابة رسالة يؤكد فيها ذلك وخاصة روايات الشيخ عثمان الشفوية ومما جاء في رسالة أبي بكر عتيق في ذلك المعنى لجماعة قواندو عاصمة الجزء

الغربي للخلافة السكتية (إن الذين يلحقون بالمهدي هم أولئك الأفراد من الجماعة الذين يعيشون في الرباط وهم ورثة جهاد الشيخ عثمان دان فوديو) [20]، كما كتب يعلمهم بوصية والده حول انتقال أهل بلاد السودان إلى النيل كما يلي : (ومما أخبرنا الشيخ هو أن جماعة أهل الرباط الذين نصبوهم هم الذين ينتقلون إلى بحر النيل وإلى بلاد الحجاز هم بعينهم أو ذريتهم وهم بقية أمراء الشيخ، وفيهم نوره وبركاته وهم يجتمعون بالإمام المهدي ويبايعونه ومعهم رايات الشيخ) [23].

الوثيقة الثالثة :

جاءت هذه الوثيقة نتيجة للهجرات الكثيرة إلى الشرق خاصة إلى السودان الشرقي والتي أزعجت بعض الأمراء كأمير كانو محمد بيلو الذي كتب خطاباً إلى مريم بنت الشيخ عثمان دانفوديو يسألها فيه عن أمر الإمام المهدي ويعبر فيه عن قلقه بسبب موجات الهجرات المتكررة نحو الشرق في الفترة (1840 – 1860م) بسبب إيمانهم بظهور المهدي، فكان ردها له : (قد ذكر الشيخ الوالد أننا نهاجر من أرض هوسا ولم يعين ذلك الوقت حتى توفي رحمه الله، بيَّن لنا طريق الهجرة فقال في ذلك أول الطريق من بقو إلى مشيكم فش ثم إلى سارا إلى الجبل المسمى أبو زرا ثم رواح ثم إلى ديقا ثم إلى كاجاكتولو ثم إلى جبال النوبة ثم تقلي وبعد يومين نسير إلى نيل الأمصار إلى آخر ما قاله رحمه الله) [11].

إن خير دليل يكشف لنا حقيقة توفر أرضية خصبة لفكرة المهدي المنتظر في أجواء غرب إفريقيا عموماً ولدى علماء الخلافة السكتية على وجه الخصوص رسالة الإمام المهدي التي خاطب فيها حياتو بن سعيد حفيد الشيخ عثمان بن فودي حثه فيها على الهجرة إليه هو وأتباعه للمشاركة في الثورة المهدية والمجاهدة ضمن صفوفها، وأفاد أنه كاتبهم لظن الخير فيهم قائلاً : (فالآن يا أحبائي إذا فهمتم ما ذكر عن المهدية فاتركوا ما أنتم عليه وأجيبوا داعي الله ورسوله بالتوجه إلينا بالهجرة حيث أمر بها سيد الوجود) [15].

بطبيعة الحال فإن المهدي أرسل هذه الرسالة إلى حياتو بن سعيد حفيد الشيخ عثمان دانفوديو وهو يدرك تماماً أنهم على علم بأمر المهدية وبأحوالها، وقد عرفوا ذلك من خلال تاريخ أجدادهم الذي ورثوه، ويظهر ذلك جلياً في قوله : (فالآن يا أحبائي إذا فهمتم ما ذكر عن المهدية....).

يؤكد ذلك ما قام به حياتو بن سعيد وهو يستجيب على الفور لدعوة الإمام المهدي التي سر لها وهو بالطبع موقف طبيعي لحياتو وجماعته وأتباعه ممن اعتقدوا هذا الاعتقاد وتشربوه عن آبائهم وفقهاءهم لذا جاء رده بالإيجاب قوياً بيِّناً [15] وفيه يقول : (... فها نحن سيدي مهاجرين إلى الله ورسوله وإليك راجين أن نكون أنصار الله ورسوله وأنصارك، إلى قوله وقد بايعناك أنا ووالدي وجميع ما تعلق بي من قبل ظهورك الحسي، وشأننا من شأنك معلوم عندنا لاسيما قد أوصانا جدنا الشيخ عثمان دانفوديو رضي الله عنه، ويجازيه عنا خيراً بالهجرة إليك ونصرتك ومعيتك إذا ظهرت ونحن معك قلباً وقالباً في نصرة الدين وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم) [3].

على ذلك عين المهدي حياتو عاملاً له على تلك المنطقة ومسؤولاً عن الأمور المتعلقة بجماعة سكوتو، كما أمده ببعض المنشورات لتوزيعها على أمراء سكوتو، أما حياتو فقد أعلن الجهاد تحت راية المهدية، واستطاعت أعداد كبيرة من سكان أواسط بلاد السودان الوصول إلى وادي النيل لتلبية نداء المهدي [18].

لقد كان حياتو يؤمن إيماناً راسخاً بالمهدية لدرجة أنها أي المهدية أثرت في حياته الأسرية، ذلك لأن حياتو كان قد تزوج من بنت القائد السوداني رابح فضل الله وتعمقت العلاقة بينهما وناصر حياتو رابح فضل الله في معاركه ضد برنو، إلا أن هذا الود لم يستمر طويلاً ، فقد اختلف الرجلان بسبب عدم التزام رابح بمنهج الإمام المهدي التزاماً دقيقاً [21].

كل ذلك يؤكد قيمة ما ورثه الشيخ حياتو من أجداده من قدسية المهدية وضرورة الالتزام بها، خاصة في المرحلة المبكرة من عمر المهدية والتي أكد فيها الباحثون أن المهدي كانت له ضوابط صارمة، أبرزها الإيمان الراسخ بالمهدية وعدم التقاعس عن الجهاد، وهذا في حد ذاته يكشف النقاب عن حقيقة لا يمكن تجاهلها وهي أن الحركة المهدية كانت حركة دينية في المقام الأول، هدفت إلى تأسيس دولة العدل في السودان، وأنها من أجل ذلك اتخذت عدة وسائل وكان الجهاد هو من أهم وأبرز وسائلها.

إن أواصر الصلات بين أجزاء بلاد السودان المختلفة متوفرة بحيث أدت حركة الحجيج المتضاعفة في القرن التاسع عشر لتدفق كميات كبيرة من الناس تحت باعث الهجرة إلى الشرق، ما أدى إلى التقارب بين سكان بلاد السودان الأوسط والشرقي، وتولد عن ذلك درجة من التكامل الاجتماعي والثقافي، وفوق ذلك تسببت هجرات الفولاني البطيئة وقوافل الحجيج عبر عقود من

الزمان في إقامة مجتمعات من الفولاني والهوسا والكتوكو والمايا في كل من دارفور وسودان وادي النيل [18].

إلى جانب ذلك أسهمت في عرض مظاهر التواصل بين السودان الشرقي والأوسط الظروف التي صاحبت قرب ظهور المهدي ومكان خروجه لأن ما بشر به الشيخ عثمان كان قد روج لظهور المهدي وهيأ المناخ المناسب لقبول دعوته، ولا شك أن أخبار حركة الفوديين وتعاليم زعيمهم الشيخ عثمان خاصة تلك التي تتعلق بالمهدي المنتظر كانت متداولة على الأقل في الأجزاء الغربية من سودان وادي النيل، وأن تقاطر المهاجرين بقصد ملاقاة الإمام المهدي ومبايعته قد أسهمت في الترويج بصورة أكبر لفكرة ظهور المهدي وخلق جو ملائم لها، وعليه يبدو وكأن شعب وادي النيل كان على استعداد لتقبل دعوة المهدي [18].

الخاتمة :

وعليه فإنه يمكن القول أن قيام دولة الخلافة السكتية وما أعقبها من إنتاج علمي وسياسي قد أديا دوراً بارزاً في توجيه فكرة المهدية التي كانت رائجة في إفريقيا ومهد لظهورها في سودان وادي النيل، الأمر الذي سهل مهمة الإمام محمد أحمد بن عبدالله عندما بدأ دعوته للجهاد وحركته ضد الحكومة على اعتبار أن الناس كانوا مهيئين تماماً لقبول فكرة المهدي والمهدية دونما أي جهد كبير يبذله صاحبها، وذلك من خلال ما وجدته الفكرة من رواج في المجتمع الإفريقي عموماً ومن علماء وحكام دولة الخلافة السكتية على وجه الخصوص.

النتائج والتوصيات :

أولاً : النتائج :

- أن معالم ظهور المهدي المنتظر كانت أكثر وضوحاً لدى مجتمع الخلافة السكتية وأنهم روّجوا لذلك بكل ما أُوتوا من وسائل، وفي ذلك دفعٌ للناس للبحث عنها وتحريها.
- أن الشيخ عثمان دانفوديو نفى تماماً أن يكون هو المهدي المنتظر، ولكنه في المقابل أكد على ضرورة تحري المهدية في سودان النيل، الأمر الذي فتح الباب أمام الجميع في سودان وادي النيل أن يتحروها بدقة.

ثانياً : التوصيات :

توصي الدراسة بضرورة بذل المزيد من البحوث حول طبيعة الثورة المهدية وبواعث قيامها خاصة مع الوضع في الاعتبار التأييد الذي حظيت به داخل قارة إفريقيا وخارجها، مع مقارنة ذلك بعمرها القصير وزوالها السريع.

قائمة المصادر والمراجع

أولاً: المصادر:

1/ ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، مقدمة ابن خلدون – من كتاب **العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط1، 2009م.

2/ ابن فودي، محمد بللو عثمان، **انفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور**، تحقيق بهيجة الشاذلي، الناشر معهد الدراسات الإفريقية، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، ط1، 1996م.

3/ أبو سليم، محمد إبراهيم، **منشورات المهدية**، دار الجيل للنشر والطباعة والتوزيع، بيروت، 1969م.

4/ بنفودي، الشيخ عثمان، **تحذير الإخوان من ادعاء المهدية الموعودة في آخر الزمان**، مخطوط، جامعة سوكوتو، منقول من يوسف فضل حسن، أثر دعوة الشيخ عثمان دانفوديو على دعوة المهدية في سودان وادي النيل، بحوث الندوة الندوة العالمية التي عقدتها جامعة إفريقيا العالمية بالتعاون مع المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة احتفاءً بذكرى الشيخ عثمان دانفوديو، تحرير عمر أحمد سعيد و عبد القيوم عبد الحليم الحسن، الخرطوم، 19– 21 نوفمبر 1995م.

ثانياً: المراجع :

5/ الجمل، شوقي، **تاريخ سودان وادي النيل**، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط1، 2008م.

6/ ذهني، الهام محمد علي، **جهاد الممالك الإسلامية في غرب إفريقيا ضد الاستعمار الفرنسي** 1850 – 1914م، دار المريخ للنشر، الرياض، 1988م.

7/ شبيكة، مكي الطيب، **السودان عبر القرون**، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1966م.

8/ شرارة، عمر علي محمد طه، **الدولة الدينية في السودان**، الشركة العالمية للطباعة والنشر، الخرطوم، ط1، 2001م.

9/ عبدالله، محمد كباشي، **ملامح من الثقافة السودانية**، دار جامعة الخرطوم للطباعة والنشر، 2010م.

10/ مالك، محمد محجوب، **المقاومة الداخلية لحركة المهدية 1881 – 1898م**، دار الجيل، بيروت، ط1، 1987م.

ثالثاً: البحوث والمقالات:

11/ أبو منقة، الأمين محمد، **العلاقات السودانية النيجيرية في إطار المهدية**، مجلة International University of Africa، 1991م.

12/ أبو منقة، الأمين محمد، **موقف الخلافة السكتية من الاستعمار البريطاني النصراني**، مجموعة بحوث الإسلام في إفريقيا، إشراف ومشاركة مدثر عبد الرحيم الطيب و التجاني عبد القادر، دار الفكر المعاصر، بيروت، ودار الفكر، دمشق، 2001م.

13/ أبو منقة، الأمين محمد، **الآثار العقائدية لحركة الشيخ عثمان بن فودي في سودان النيل**، بحوث الندوة الندوة العالمية التي عقدتها جامعة إفريقيا العالمية بالتعاون مع المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة احتفاءً بذكرى الشيخ عثمان دانفوديو، تحرير عمر أحمد سعيد و عبد القيوم عبد الحليم الحسن، الخرطوم، 19– 21 نوفمبر 1995م.

14/ البرجاوي، مولاي المصطفى، **المهدي المنتظر بين الروايات التاريخية والأحاديث النبوية الصحيحة**، شبكة الألوكة الثقافية، موقع على الانترنت، يوليو 2008م.

15/ جادين، محمد علي وآخرون، **كتابات سودانية**، كتاب غير دوري، مركز الدراسات السودانية، العدد التاسع والأربعون، أكتوبر 2009م.

16/ الحاج، محمد أحمد، **الجذور التاريخية لفكرة المهدية، منارات إفريقية**، موقع متخصص في شؤون الإسلام والدعوة الإسلامية في إفريقيا عبر شبكة الانترنت، 28 يوليو 2013م.

17/ الحارث، الحارث إدريس، **المرشد إلى فهم مهدية محمد أحمد المهدي بن عبدالله، صحيفة سودا نايل الالكترونية**، 30 مايو 2015م.

18/ حسن، يوسف فضل، **أثر حركة الشيخ عثمان دانفوديو على دعوة المهدية في سودان وادي النيل**، بحوث الندوة العالمية التي عقدتها جامعة إفريقيا العالمية بالتعاون مع المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة احتفاءً بذكرى الشيخ عثمان دانفوديو، تحرير عمر أحمد سعيد و عبد القيوم عبد الحليم الحسن، الخرطوم، 19– 21 نوفمبر 1995م.

19/ العراقي، السر سيد أحمد، **نظام الحكم في الخلافة الصكتية**، مطبوعات كلية الدراسات العليا جامعة الخرطوم، الخرطوم، ط1، 1983م.

20/ كاني، أحمد محمد، **حركة الجهاد الإسلامي في غرب إفريقيا في القرن التاسع عشر الميلادي الاستراتيجية – المنهجية – الأهداف**، بحوث الندوة العالمية التي عقدتها جامعة إفريقيا العالمية بالتعاون مع المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة احتفاءً بذكرى الشيخ عثمان دانفوديو، تحرير عمر أحمد سعيد و عبد القيوم عبد الحليم الحسن، الخرطوم، 19 – 21 نوفمبر 1995م

21/ محمد، الطيب عبد الرحيم، **الفوديون ومقاومة الاستكبار في غرب إفريقيا والسودان**، بحوث الندوة العالمية التي عقدتها جامعة إفريقيا العالمية بالتعاون مع المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة احتفاءً بذكرى الشيخ عثمان دانفوديو، تحرير عمر أحمد سعيد و عبد القيوم عبد الحليم الحسن، الخرطوم، 19 – 21 نوفمبر 1995م.

رابعاً: الصحف والدوريات:

22/ أحمد، حسن مكي، **رواد الفكر والتجديد** – السودان وإفريقيا جنوب الصحراء في المائتي سنة الأخيرة، دراسة مقارنة بين عثمان دانفوديو في سكوتو والشيخ أحمد التجاني والميرغني الكبير وأحمد الطيب البشير في ديار الفونج، مجلة دراسات إفريقية، العدد 41، يونيو 2009م.

23/ الأمين، أسامة عبدالله محمد، **حركة الشيخ عثمان بن فودي الإصلاحية في غرب إفريقيا 1754 – 1817م**، دورية كان التاريخية، دورية الكترونية محكمة ربع سنوية متخصصة في الدراسات والبحوث التاريخية، العدد السادس والعشرون، ديسمبر 2014م.

24/ علي، يعقوب، **الخلافة العثمانية في سكوتو ودورها في غرب إفريقيا**، مجلة قراءات إفريقية، مجلة ثقافية فصلية محكّمة متخصصة في شؤون القارة الإفريقية تصدر عن المنتدى الإسلامي، العدد الحادي عشر، يناير – مارس 2012م.

25/ لنقر، عمر عبد الرازق، **الجذور العقائدية والتاريخية لهجرة مي ورنو إلى السودان**، مجلة الدراسات السودانية، معهد الدراسات الإفريقية والآسيوية، الخرطوم، العدد الأول، المجلد الثاني، 1970م.